ولا يفي بما وعد ، لأنه لا يملك منها إلا عنواناً في ورقة بيضاء ؛ ومن ذلك مقالة (الزبّال الفيلسوف) التي وعد أن يكتبها حين أنشأ للرسالة قصة « بنت الباشا » ثم مضت ثلاثة أعوام ووافاه الأجل وما تزال مقالة الزبال عنواناً في رأس ورقة تحته نثار من الخواطر والمعاني التي كان يدخرها إلى يومها المؤمّل

ولقد وجدْتُ على مكتبه في طنطا غداة نعيه كثيراً من هذه الورقات ، تشير إلى كثير من أمل الأحياء وإلى كثير من خداع الحياة ... !

* * *

... فإذا تم له اختيار الموضوع الذي يتهيأ لكتابته ، تركه للفكر يعمل فيه عمله ، وللواعية الباطنة أن تهيئ له مادته ؛ ويدعه كذلك وقتاً ما ، يطول أو يقصر ، يقيد في أثنائه خواطره لا تكاد تفلت منه خاطرة ؛ وهو في ذلك يستمد من كل شيء مادة وَحْي ، فكأن في كل موجود يراه صوتاً يسمعه ، وكأن في كل ما يسمعه لوناً يراه ، وكأن في كل شيء شيئاً زائداً على حقيقته يملي عليه معنى أو رأياً أو فكرة ...

فاذا اجتمع له من هذه الخواطر قدر كاف — والقدر الكافي لتجتمع له هذه الخواطر هو يومان أو ثلاثة — يأخذ في ترتيبها معنى إلى معنى ، وجملة إلى جملة ، ورأياً إلى رأى . فهذه هي الخطوط الأولى من هيكل المقالة

ثم هو يعود بعد ذلك إلى هذه الخواطر المرتبة — بعد أن ينفي عنها من الفضول ما يدخره لـ « كلمة وكليمة » أو لموضوع آخر — فينظر فيها ، ويزاوج بينها ، ويكشف عما وراءها من معان جديدة وفكر جديد ؛ ولا يزال هكذا : يزاوج ويستولد ، ويستنتج من كل معنى معنى ، ويتفطر له عن كل رأى رأي ، حتى تستوى له المقالة فكرة تامة بعضها من بعض ، فيكتبها

إلى هنا يكون قد انتهى عمل الذهن ، وعمل النفس ، ويبقى عمل الفن والصناعة لتخرج مقالة الرافعي إلى القراء في قالبها الأخير الذي يطالع به الأدباء ... وبيني وبين القراء ميعاد ...

« شبرا » محمد سعيد العريان

من برجنا العاجي

أذكر أني ما قرأت بعض فقرات من « يوليوس قيصر » لشكسبير ، إلا عمرني حزن حقيقي . قصة أخرى أذكر أيضاً أنها كانت تترك في نفسي عين الأثر : هي رواية فرنسية تسمى « نابليون المسكين » لكاتب فرنسي يسمى « برنارزيمر » يصور فيها الامبراطور سجيناً في جزيرة سانت هيلانة ، وقد قصت أجنحة هذا النسر الهائل ، وقلمت مخالبه ، وأمسى مخلوقاً بائساً يهزأ به خادمه ويخفي عنه غليونه الذي يدخن فيه ، ويهمله سجانه الانجليزي ويدعه يتقلب طول الليل على مضجع الألم من مرض أضراسه ، فلا يرحمه ولا يحضر له طبيباً ولا دواء ، ويلقبه « بالدب » الذي وضع في أنفه حلقة من حديد ويسمح لبعض الزائرين من السائحين أن ينظروا اليه خلسة من ثقب باب حجرته ، كأنه أسد هرم رابض في قفصه بحديقة الحيوان ، هذا الذي كان وحده يقيم العروش ويثل العروش ، ويدب بحذائه العسكري على أديم أوروبا فتهتز لشيته التيجان على رؤوس الملوك . وكان يقول في صوته الحديدي : أنا وحدي « أوربا » ، فتقول له أوروبا كلها : بل أنت « العالم » . نعم لا شيء يؤلم نفسي مثل رؤية « العظيم » يرى سقوطه بعينيه ، ومع ذلك لقد احتفظ هذا العظيم بكبريائه حتى النفس الأخير . ولقد كان يصر على أن يلقب بالامبراطور ، ولقد خاطبه في ذلك مرة حارسه الانجليزي قائلا له : إمبراطور على من ؟ وإمبراطور على ماذا ؟ فلم يجد منه إلا تشبثاً . فأذعن رفقا به أو سخرية منه ، وترك له هذا اللقب الذي لا يغني ولا يفيد . ولبث هذا البطل المهجور يعيش في هذه الجزيرة المهجورة إلى أن مات ، لا بين قصف المدافع ودوي الأبواق ودق الطبول وهتاف العالم من جميع الأركان ، ولكن بين سكون النسيان ، لا يشيع جثمانه العظيم غير خادم وسجان .

يا لقسوة القدر ! ان السماء لتنتقم أحياناً من العظيم الذي يتوهم أنه غير وجه العالم بأعماله ، فتؤخر موته بضعة أيام عن الوقت الذي كان ينبغي فيه أن يموت ، حتى يرى بعينيه قبل أن تغلقا أن العالم بخير لم يتغير فيه شيء بذهابه ، ولم تخفت ضحكاته ولم تقف عجلاته برحيله.

توفيق الحكيم